

الكتاب

إذا بلغت الحضارة أوجها في أمة يتفنن أهل العلم في التأليف المفيد فيضعون المصنفات في الموضوعات التي لا تخطر على بال أحد في مجتمع غير راق . ومن كان يظن أن أبا عمرو بن عمر الجاحظ البصري يؤلف كتاباً في مدح الكتب والحث على جمعها (١) عدا ما وقع له من ذكرها مرات في كتبه قبل زهاء ألف سنة ولكن ما كتبه الجاحظ في تلك الأزمان يكتبه مؤلف هذه الأيام ببيان أشق ومادة أوسع لارتقاء هذه العصور باختراع الطباعة التي عمت بها المطبوعات وسهل بها التأليف والنشر ولا سيما على من كان مثل مؤلف «الكتاب» الذي صدر هذا الشهر في خمس مجلدات للسيو البرسيم قيمة مكتبة نظارة البريد والبرق في باريس

قسم كتابه الى أقسام فتكلم على حب الكتب والمطالعة والكتب في الأزمان السالفة والقرون الوسطى منذ اختراع الطباعة الى عصرنا هذا وتميز بعض المؤلفين على بعض وما يجب أن يطالع من الكتب وكيف يجب أن يطالع أو يتصفح وتؤخذ مفكرات بالخط على بعض الكتب وهل ينبغي الاستكثار من الكتب أو الاقلال منها وكيف نختار الكتب وهل يجب الاكثار من المطالعة أو الاكثار من إعادة المطالعة . وتكلم على الكتب المزيينة والكتب البسيطة . والتقدمة والحديثة والاستشفاء بالكتب وتاريخ الكتب وذكر الروايات والصحف وتكلم على المجانين بالكتب (٢) Bibliomanes والهاثمين بالكتب Bibliolâtres وممزي في الكتب Biblioclastes وأعداء الكتب Bibliophobes

(١) انة بس ٣ - ٥٦١ - ٦٠١

(٢) المقتبس ١ - ٨٥

وعد النساء من أعداء الكتب وإطال في إغارة الكتب وفي ورقها وقطعها وطبعها
وتصويرها وتجليدها وإتباعها وترتيبها في قاطرها والعناية بفهرستها وتنسيقها وكيفية
استعمالها وحفظها وطبعها واختصارها

هذه أهم ما تدور عليه أبحاث هذه المجلدات الخمسة الممتعة ويرى مؤلفها
أن لا يقتصر في الكتاب على الباسه لباس الظرف وحفظه في الزجاج والنظر
إليه باعجاب وانعطاف بل أنه خلق ليقراً ويتدبر مافيه ويتلذذ به قال : فانا
أأخذ بمثابة أداة للدرس والتسلية والتعزية وقررة عين بل هو واسطة للكمال
العقلي والادبي فانا من ثم لأفصل بين محبة الكتب ومحبة الآداب بحال وان
شئت فقل بين محبة الجمال والخير والعدل والحق فبين هذه الامور تشابه

وقد اعتذر المؤلف عن أن معظم كتابه ليس من قلمه بل هو عبارة عن
استشهاد بأقوال أئمة العلم والادب في كل عصر ومصر وذلك لان الاستشهاد
بكلام الرجل بعينه يصوره كما هو وله من الوقع في النفس أكثر من
المطالع على الرجوع الى ما كتبه المؤلف كما قال سانت بوف العالم . وقال
شاتوبريان الفرنسي الكاتب : لا يجب الاعتقاد بأن معرفة ايراد الشواهد
هو مما يسمع كل أحد من أرباب العقول الضعيفة أن يفعله ممن فرغ وطابهم
من كل علم فيستقون من موارد غيرهم مآراقهم وما الاستشهاد حيث يجب الا
دليل العلم . فالذاكرة التي تدخر الشواهد لحين الحاجة هي في الحقيقة قرينة
الذكاء بل هي أم الذكاء وجوده الذهن . وقد غذى كبار كتّاء عصر لويس الرابع
عشر عقولهم بالشواهد وكان شيشرون الخطيب الروماني الذي لم تكن له الا
لهجة واحدة يلهمج بها ويتوفر عليها بكثير من الاستشهادواً نأياً (شاتوبريان)
لا أقصر في هذا السبيل

ولذا سار مؤلفنا في مصنفه الجليل على هذه الطريقة شأن معظم الكتاب الذين لا يكتبون الا بصحيح الاسناد وايراد الشواهد والشوارد فيقرأ القاريء فيه من أسماء الكتب المؤلفة بالافرنجية في هذا المبحث ما يدل على ان الغربيين اليوم سابقون في كل محمودة ويسجل بما بذله بنفسه من الدرس والبحث حتى جاء كتابه آخذاً من كل شجرة ثمرة ومن كل حديقة زهرة

قال في تاريخ الكتب انه لم يعرف في الحقيقة الا منذ ثلاثة آلاف سنة وان قال أحد علماء الالمان بوجود الكتب قبل الطوفان ووضع لذلك مصنفاً. فتاريخ الكتب يرد الى عهد ملك مصر اوسيماندياس الذي يرى علماء الآثار المصرية اليوم انه هو رعمسيس الثاني أو سزوستريس وكان له خزانة كتب جعلها في قصره في ثيبة كما قال المؤرخ ديودور الصقلي وقد حكم هذا بوجودها من أثر كان مزبوراً على الحجر في أعلى باب هذه المكتبة وهو قوله « هنا أدوية النفس » فوصف بذلك الكتب أجمل وصف وأوجزه عرف ولا يثنأ أن يقال أحسن منه . ومضت على هذا الوصف الازمان حتى جاء الفيلسوف موتسكيو في القرن الثامن عشر فقال : ما قط حزنت الا وتبدد حزني بساعة من المطالعة أرواح بها عن نفسي ثم جاء بعده القصصي الانكليزي بولورليون في القرن التاسع عشر ووصف مطالعة بعض المصنفات لشفاء بعض الامراض فرأى المداواة بالكتب كأشياء بعض العقاقير والعناصر . وكل من قال كلمة في هذا الباب لم يخرج في وصفه للاسفار عن حد الحكمة التي علقها ملك مصر على مكتبته أو شرحها والمبالغة فيها . وأسس العالم بينيستر (٥٦١-٥٢٧ ق.م) مكتبة عامة في أثينة وهي أول مكتبة من نوعها جمع فيها أشعار هوميروس ولم تكن تميمها من قبل الا ذاكرة القصاصين والمتشاعرين . ويؤخذ من بيت

للشاعر اريستوفان (قبل المسيح بخمسة قرون) أن الكتب كانت منتشرة جدا في زمنه بمدينة آثينة . وقال كسينوفون في تذكرة سقراط شيئا عن الكتب والمجاميع ومجارتها

واسعمل السبيادس على نحو ذلك الزمن (٤٥٠ - ٤٠٤ ق . م) طريقة لا تخلو من قلة ذوق ليحب أبناء وطنه في الكتب فدخل مدرسة خاصة بدراسة النحو وسأل المعلم أن يأتيه ببعض كتب هوميروس فاجابه ان ليس عنده ولا واحد منها فصنعه وخرج . وكان الاسكندر الكبير (٣٥٦ - ٣٢٥ ق . م) مولعا من وراء الغاية بدرس اشعار هوميروس وبعد ان هزم دارا ملك الفرس وقع اليه سقط كان بين اسلاب المغلوبين فسأل خاصته ماذا ينبغي ان يجعل فيه من مال أو متاع فاختلف آراؤهم أما هو فقال لهم : انه يضع فيه اليادة هوميروس لتحفظ فيه حفظا جديرا بها . وكان الاسكندر أثناء رحلته الى آسيا أمر بأن تجلب له توار يخ فيليست وفاجعات اوربيدس وسوقلس واشيل وغيرهم ويحب اسناذه ارسطو كما يحب اباه لان هذا سبب حياته وذلك سبب سعادته . وأنشأ بطليموس سوتر أحد خلفاء الاسكندر الذي استأثر بملك مصر عند ما قسمت المملكة اليونانية مكتبة الاسكندرية وهي شهر واغنى مكتبة في الازمان السالفة وكان ذلك باشارة ديمتريوس دي فالير (٣٤٥ - ٢٨٣ ق . م) النحوي المؤرخ البياني حاكم آثينة الذي غدا اول قيم على هذه المكتبة وجري خلفاؤه من البطالسة على العناية بهذه المكتبة ولا سيما بطليموس الثاني قيلا دلفيس (٢٨٥ - ٢٤٧) و بطليموس الثالث افرجيتس . وكانوا ينشطون زراعة ورق البردي ليتوفر الورق لديهم ولا يستخدمون كثيرا من النساخ وربما لم يكونوا يستنكفون من السرقة لزيادة ما عندهم من الكتب كما فعل احدهم فاستعار من

مكتبة آئينة كتباً لشعرائهم وفلاسفتهم فاستندسخها ولم يرجع الاصل بل ارجع نسخاً ثانية منها وبطليموس الثاني فيلادلفس - لعله لقب بذلك امتيازاً به لانه قتل أخوته أولانه تزوج أخته - هو الذي أمر بترجمة كتب العبرانيين المقدسة الى الرومية بمعرفة سبعين من علماء بني اسرائيل وكانت ترجمتهم السبعينية من أهم حوادث التاريخ لانها سهلت السبيل الى انتشار اليهودية ومهدت للنصرانية

ولم تحرق مكتبة الاسكندرية التي قال بعضهم انه كان فيها نحو سبعمائة الف مجلد على يد الامام عمر (١) ولا بأمره كما جاء في بعض التقاليد فان هذه الدعوى من الاغلاط التاريخية العظيمة اذ لم يكن أثر لهذه المكتبة عند ما قمت العرب مدينة الاسكندرية سنة ٦٤٠ وعلى عهد البطالسة اصبح أمر المكتبة الى ضعف فقسمت شطرين جعل كل منهما في مكان مستقل فحرق القسم الاول قضاء وقدرا عند ما استولى يوليوس قيصر على الاسكندرية سنة ٤٧ قبل المسيح وذهب القسم الثاني وكان جعل في معبد سيرابيس على يد الاسقف تيوفيل بعد ذلك التاريخ بأربعمائة سنة عقيب الامر الصادر عن تيودوس بالقضاء على جميع المعابد الوثنية وجعل عاليها سافلها

ومن المكاتب الشهيرة في القديم مكتبة فرغامس « برغامه » في آسيا الصغرى أسسها اومينوس الثاني ابن اتال الاول قبل المسيح بمائتي سنة ويقول بلوتارك انه كان فيها مائتا الف مجلد بسيطة أهداها انطونيوس أحد حكام اليونان الى كلوبطرة ملكة مصر من نسل البطالسة . وقد نقل كثير من الكتب من مكاتب آئينة والشرق الى ايطاليا وكانت المكاتب عند الرومان

تبنى بالقرب من معابدهم وأول مكتبة أنشئت في رومية على يد ازينوس بولانيوس. واطالما تنافس ملوكهم في الاكثار منها وفيهم من جعلوا خزان الكتب العامة في قصورهم. تساوى في الغلو بحب الكتب عالمهم وجاهلهم وعادتهم وظالمهم وتكلم على الكتب على عهد البرابرة والهونس والغوط والغوط الغربيين والفنداليين وعلى غلاتهم من الافرنج في القرون المتأخرة (١) وأجاد ما شاء وشاء بيانه في اختيار المصنفات وانتقاء الاجود منها فأتى على ذلك بشئ مما قاله أهل العلم والحكمة منذ الزمن القديم الى عهدنا هذا فقال ان توسيديد حضر مجلساً لهيرودس المؤرخ اليوناني يتلوفيه على بعض أهل آثينة شيئاً من تاريخه فاهتز وطرب ولم يمالك ان بكى وكان عمره خمس عشرة سنة وكان ديموستين يغالي في الولوج بتاريخ توسيديد نسخه بخطه الجميل ثمانى مرات ليرسخ الشاؤده في ذهنه ويطبع عليه. وكان الاسكندر الكبير مهوياً بالياذة هوميروس يصحبها معه حيث ذهب ويضعها تحت المخذة مع سلاحه عند ما ينام وكان شيشرون يرى ديموستين أخطب خطيب في كل ضرب من ضروب الخطابة ويعنى بما كتبه ارسطو وأفلاطون وتيوفراست كل العناية

وكان شارلمان (٧٤٢-٨١٤) ملك فرنسا مولعاً بتلاوة كتاب مدينة الله للقديس أوغسطينس كما ان الفريد الكبير ملك انكترا (٨٤٩-٩٠٠) يؤثر مطالعة قصص ازوب وترجمها شعرا الى اللغة السكسونية وكان يرى تيودور كازا النحوي اليوناني المشهور (١٣٩٨-١٤٧٨) ان كتب القدماء لو ألفت كلها في النار لاختار ان يخلص منها كتب بلوتارك. وجعل شارلمان (١٥٥٨-١٥٥٠) كتب توسيديد رفيقته في أعماله وكان يقرأه كرات كمين المؤرخ بولع شديد.

وكان كاتم السر فرنسيس باكون (١٥٦١-١٦٢٦) يقول ليست الكتب
 الا تكرارا فابحث في كتب اليونان والرومان والعرب وجميع مؤلفي القرون
 الحديثة فلا ترى فيها كلها شيئا يتعدى ما قاله الفلاسفة ارسطو وأفلاطون
 واقلیدس وبطلیموس. وكان ملتون الشاعر الانكليزي (١٦٠٨-١٦٧٤) الاعمى
 يقرأ في الصباح شيئا من التوراة بالعبرية ثم يدرس شعر هوميروس ويقال انه
 استظهره كله وعلم بناته الثلاث ثماني لغات يقرأن فيها عليه بدون ان يفهمها
 وكان يقول ان البنت تكفيها لغة واحدة ولكنه لم ير بدا من تعلمهن ليقرا
 له ما يحب

وكان كورنيل الشاعر الفرنسي (١٦١٦-١٦٨٤) يؤثر مطالعة تاسيت
 وتيت ليف المؤرخين اللاتينيين ويعنى عناية خاصة بلوكين الشاعر اللاتيني وسينيك
 الفيلسوف وسمع لافوتين الشاعر الفرنسي (١٦٢١-١٦٩٥) وهو في الثانية
 والعشرين نشيدا للشاعر مالرب فاخذ العجب باقوال هذا الشاعر ثم انصرف الى
 مطالعة هوراس وفرجيل وتيرانس وكنتيلين واختار من مؤلفي الفرنسيين رابلي ومارو
 ودورفي وفواتور وقرأ من الايطاليين اريوست وبوكاس وما كيا فيل وتاس
 وشغفت العقيدة دي سيفنية الكاتبة الفرنسية (١٦٢٦-١٦٩٦) بمطالعة أدب
 نيكول ثم كورنيل وبوردالو. وكان الاخلاقي لابروير (١٦٦٩-١٦٩٦) يرى
 ان موسى وهوميروس وأفلاطون وفرجيل وهوراس لا يفوقون غيرهم من الكتاب
 والشعراء الابجودة تعابيرهم وتصوراتهم

وكان الشاعر راسين (١٦٣٩-١٦٩٩) استظهر وهو في السادسة عشرة
 أو السابعة عشرة اشعار سفوقلس وارييدس وقرأ أفلاطون وبلوتارك على
 الاصل اليوناني وكان وهو في المدرسة يقرأ رواية تيوجين وشاريكله لهليودور

اليوناني ففاجأه معلمه فتناول الكتاب من يده وألقاه في النار ثم اجتهد راسين
ان يحصل على نسخة ثانية من هذه الرواية فعامله استاذ به مثل ذلك ثم استحصل
نسخة ثالثة واخذ يحفظها سرا ولما اتى عليها حمل النسخة الى معلمه وقال له :لك
ان تحرق هذه كما حرقت اختيها لاني لاجابة بي اليها

وقال الكاتب الفرنسي سان أفرموند (١٦١٣ - ١٧٠٣) ان رواية دون
كيشوت لسرفاتيس هي من المصنفات التي استطيع تلاوتها طول عمري دون أن
امل ساعة وكنت أود أن أكون مؤلف دون كيشوت من بين جميع الكتب
التي طالعها ومن رأيي انه ليس من كتاب يساعد كثيرا على تحسين ذوقنا في كل
الامور مثله. ويظهر ان كوفيدو من حذاق المؤلفين واني لا اعتبره زيادة لانه اراد
أن يحرق جميع كتبه عندما قرأ دون كيشوت وكان يؤثر لولم يؤلفها قال ثم
اني رأيت مما يلذني طول حياتي كتب موتنين وأشعار مالريب وفاجعات كورنيل
ومصنفات فواتور

سئل الشاعر بوسويه (١٦٢٧ - ١٧٠٤) عن المصنفات التي يتمنى لو قدر له
أن يؤلف مثلها فقال كتاب « رسائل الولايات لباسكال » وكان يؤثر شعر
هوراس وكان بوالو (١٦٣٦ - ١٧١١) يجعل لشعر هوراس المقام الاول ثم لثيرانس
ويفضل مشاهير القدماء على مشاهير المحدثين ما خلا باسكال فانه عده في مصاف
الغضاء وكانت مكتبة لاينز الفيلسوف الالماني (١٦٤٦ - ١٧١٦) عبارة عن
مصنفات أفلاطون وارسطو وبلوتارك وسكتوس امبيريكوس واقليدس
وارخميدس وبلين وشيشرون وسينيك وقد درس منذ نعومة أظفاره اللغات
القديمة وآثر التوفر على الاخذ من الشعارين تيت ليف وفرجيل حتى انه كان
في شيخوخته يسمعك ماقاله فرجيل بالحرف الواحد

وكان مونتسكيو (١٦٨٩-١٧٥٥) جعل قراءة كتابات تاسيت هجيراً وقال من نفسه: اني لا اعترف ان ذوقي في القدماء وان الزمن القديم يبهجني وانا اقول ابداً ما قاله بلين انكم ياهولاء تذهبون الى آئنة فاحترموا الارباب . وكان يحتفل من وراء الغاية بكتاب تليماك كما يأنس بكتب اشيل واربيد وسوفلس وبلوتارك وارسطو وافلاطون وشيشرون وسويتون وفرجيل ويختار من المحدثين كريبليون وموتين ولاروشفوكولد ويعتقد ان أعظم الثمراء أفلاطون ومالبرنش وشافتر بوري وموتين

و كنت ترى على منضدة فولتير (١٦٩٤-١٧٧٨) رواية اتالي لراسين وكتاب الصوم الصغير لماسيليون وقال الفيلسوف ديدرو الفرنسي (١٧١٣-١٧٨٤) في كلامه على القصصي الانكليزي ريشارسون ان مطالعة كتبك هي سلوتي في جميع أوقاتي فلو قضت على الضرورة أن أبيع كتبتي لأعلم ثمنها أولادي لاستثيتك منها وابقيتك لي أنت واسفار موسى وهوميروس واربيدس وسوفلس واتناوب قراءة تلك مرات . وكان العالم بوفون (١٧٠٧-١٧٨٨) يوصي بقراءة أعظم أرباب القرائع والعقول وقد حصرهم في خمسة وهم نيوتن وباكون ولايبنز ومونتسكيو وهو في جملتهم

وكان « كانت » الفيلسوف (١٧٢٤-١٨٠٤) يرى ان الارق اذا استولى على امرئ فليس لصاحبه الا أن يحصر فكره في موضوع واحد أما هو فكان يجلب النعاس الى عينيه بأن ي تصور شيشرون وحياته وكتاباته . وكان كييتي (١٧٤٩-١٨٣٤) يرى ان خير ما يقرأ ما خطته انامل مولير وفولتير وقال عن هذا انه صفوة امته كما ان لويس الرابع عشر صفوتها في السياسة وذلك لان الامرة اذا طال عليها العهد يتسلسل منها فرد يجمع جميع صفات اجداده

وكالاتهم وهكذا كان فواتير أعظم كاتب كانت بينه وبين امته مناسبة وهو أعظم
أديب على اختلاف العصور وأعجب مؤلف في الطبيعة
وسنحدث القراء بشيء من فوائد « الكتاب » بعد

مجامع الغرب

اشتقت لفظة المجمع التي هي تعريب « أكاديميا » الا فرنجية من أكاديموس
بطل آثينة فكانت الاكاديميا هناك عبارة عن بيت خاص أو ملعب محاط
بالاشجار حوى عدة محال لتقديس الارباب ومنها محراب لربة الشعر أنشأه
الفيلسوف أفلاطون فكان يتنزه تحت ظلال أشجاره مع تلاميذه وبذا كرم
في المسائل العلية ولما هلك دفن في حديقة مجاورة لذلك المكان فتولى سبوزين
بعده أمر المجمع ثم توسع في معنى الاكاديميا فصار يطلق على فريق رجال الادب
والعلم وأرباب الفنون يجتمعون للبحث في موضوعات عامة نافعة

هكذا كان شأن مجمع البطالسة في الاسكندرية ومجمع الاسرائيليين ومجمع
الخلفاء العباسيين في بغداد والامويين في الاندلس ومجمع شارلمان والفرد الكبير
الفرنسيين . وكانت بعض هذه المجامع أشبه بمدارس منها بمجامع عليّة كما ترى
المجامع اليوم

نشأت في أوروبا خلال القرن الثالث عشر والرابع عشر مجامع عليّة نظريّة
مثل مجمع فلورنسا احدى مدن إيطاليا (١٢٧٠) ومجمع المناظرات البديعة في طولوز
من فرنسا (١٣٢٣) ولم يكن في ذينك المجمعين بغير الشعر لما ان الشعر والادب
هما أول مآلغايه الامة وتحرص عليه ليكون سلماً الى سائر العلوم التي هي قوام
المجتمعات البشرية